٢٧ السيدة عائشة امرأة ضد الطغيان

الإسلام لايمنع وجود أولياء الله من النساء، فشروط الولاية فى الإسلام معروفة، حيث ذكرها القرآن الكريم:

﴿ أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝٦٢ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴾(١).

والإيمان والتقوى مطلوبان من الرجال والنساء على السواء، وباب الاجتهاد مفتوح للرجال والنساء بنص الآية الكريمة: ﴿ فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّى لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ ۖ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ ﴾(٢).

ولقد جاء القرآن بولاية كثير من النساء، وظهور الكرامات لهن تأييداً لموقفهن الإيمانى، ودليلاً على مدى ما وَصَلْنَ إليه فى طريق الولاية، ومن أبرز هؤلاء مريم ابنة عمران التى أحصنتْ فرجها فخاطبتها الملائكة:

﴿ إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴾(٣).

وكذلك آسية امرأة فرعون، وقد ذكرها الله فى القرآن الكريم، وضرب بها المثل

---

(١) سورة يونس ـ من الآية٦٢.

(٢) سورة آل عمران ـ من الآية ١٩٥

(٣) سورة آل عمران ـ من الآية ٤٥.

حيث قال تعالى: ﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾[1].

وفى تاريخنا الإسلامى كثير من النساء اللاتى بلغن مرتبة الولاية ومنهن السيدة زينب، والسيده نفيسة، ورابعة العدوية، والسيدة عائشة بنت الإمام جعفر الصادق، موضوع هذه السطور.

بعد أن استشهد الإمام زيد بن على زين العابدين بن الحسين أصبح ابن شقيقه الإمام جعفر الصادق ابن الإمام محمد الباقر عميداً لآل بيت رسول الله ﷺ.

لقد كان الإمام جعفر الصادق يحذر عمه زين العابدين من نفاق وكذب مَنْ طلبوا مبايعته بالكوفة، ويذكِّره دائماً بما حدث لجدهما الحسين رضى الله عنه، فكان العم يقتنع، ولكنه فى الوقت نفسه لم يستطع السكوت طويلا على استبداد وطغيان بنى أمية، إلى درجة أن ابن الشقيق بدأ هو الآخر يدعو الناس إلى ضرورة اتباع العم، خصوصاً لأنه يطالب بمبادىء جدهما الحسين، برغم أن أسلوب الإمام جعفر الصادق فى الحياة كان امتداداً لأسلوب أبيه الإمام محمد الباقر، وجده الإمام على زين العابدين بن الحسين وهو بعينه أسلوب إحياء السنن ورفض البدع.. ولذلك لم يجمع الناس على حب أحد فى ذلك العصر المضطرب بأحواله وأحداثه كما أجمعوا على حب الإمام جعفر الصادق، ذلك لأنه كان صافى النفس، واسع الأفق، مرهف الحس، ومتوقد الذهن، كبير القلب، يلتمس فى غضبه الأعذار للآخرين سبَّاقاً إلى الخير.

وكان بيته فى المدينة ملتقىً لكل طالب علم أو فقه أو حاجة، وملاذاً للذين يكابدون استبداد حُكَّام بنى أمية، على امتداد الأقطار الإسلامية المختلفة، خاصة بعد أن زاد هذا الاستبداد وتضاعف.

فى هذا البيت النقى الطاهر الذى يستمد نقاءَهُ وطهارته من عترة رسول الله ﷺ، ولدت للإمام جعفر مولودة سمَّاها عائشة، تيمناً باسم أم المؤمنين عائشة

(١) سورة التحريم - من الآية ١١.

رضى الله عنها، فقد كان جد هذا الإمام لأمه هو أبا بكر الصديق، كما كان جده لأبيه هو الإمام على بن أبى طالب رضى الله عنه.

وفى هذا المناخ السياسى المضطرب عاشت طفلة ثم صبية.. صحيح لقد سقطت دولة بنى أمية وبعث الثوار برسالة إلى والدها الإمام جعفر الصادق يطالبونه فيها بأن يقبل البيعة ليصبح أميراً للمؤمنين، فرفض وأحرق الرسالة، لأنه كان يرى أن له دوراً فى الحياة يفوق الإمارة والملك، هو الدور العلمى، حتى أنه كان يقول دائماً: «مَنْ طَلَبَ الرياسة هَلَك».

كانت السيدة عائشة تعيش هذه الأحداث، وترى أن والدها الإمام جعفر الصادق إذْ رفض الخلافة فلن يبايعه أحد، حتى إذا بايعوا أبا العباس السفاح حفيد الصحابى الجليل عبد الله بن عباس بن عبد المطلب ـ وبنو العباس هم بنو عمومة العلويين ـ اطمأنت واستبشرت خيراً، فقد شاء لها القَدَرَ كغيرها ـ أن تشهد انتهاء عصر بنى أمية بكل شره وخيره، ليجئ عصر جديد، فيه يتطلع الناس إلى الحرية والطهارة والعدل، وهذا ما كان الناس يتطلعون إليه، فماذا حدث؟

حدث مالم يكن فى حسبانها أو حسبان أحد فى ذلك الزمان، لقد رأت المنافقين والانتهازيين الذين زينوا الظلم والاستبداد للأمويين من قبل، وشرعوا وقننوا لهم العداون والطغيان، رأتهم يحتفون من جديد بالخليفة الجديد أبى العباس ويزينون له ما كانوا يزينون لغيره من الأمويين.

كانت السيدة عائشة رضى الله عنها تسمع وترى وتشارك فى الرأى، وتناقش الذين يحضرون إلى بيت أبيها الإمام جعفر الصادق يشكون إليه ما آلت إليه أمور الدولة بفعل هذه الطغمة الفاسدة التى تحيط بالخليفة.

وربما لاحت فى الأفق بارقة أمل عندما توفى أبو العباس وتولى الخلافة من بعده المنصور، لكن هذا الأمل أصبح مجرد سراب، فقد أحاط إخوان السوء من المنافقين بالخليفة الجديد مرة ثانية. وإذا بهم يوسوسون له بالآراء نفسها، بل يوهمونه أنه فوق الحساب، حتى لقد جعلوا المنصور يوماً يحمل الناس على تقبيل الأرض بين يديه، وهكذا وجهوا كل نشاطهم العقلى للنفاق والتملق والاستغلال.

كانت السيدة عائشة رضى الله عنها تسأل أباها: أى أمل للناس فى الخليفة وقد أصبحت الشورى لذوى الضمائر الخربة والألسنة المستهلكة؟ ولعلها وهى تسأل كانت تلوم أباها الإمام جعفراً الصادق لأنه رفض الخلافة، فلو كان قد وافق الناس على ما أرادوا فربما لم تصر الأمور إلى ما صارت عليه من سوء. وأى سوء بعد أن مضى المحيطون بالخليفة المنصور.. يدعون إلى التقشف باسم الإسلام ويحببون الفقر إلى الناس باسم الدين لينصرفوا هُم إلى جمع المال، ويعيشوا فى حياة الترف والبذخ!؟

لقد رأت السيدة عائشة رضى الله عنها كيف استطاع هؤلاء المنافقون أن يواجهوا إسراف وبذخ الطبقة الحاكمة بالزهد فى كل شئ، والانصراف عن كل حق، وليس باستخلاص الحق المعلوم الذى شرعه الله وأقره نبيه الكريم، وكثيراً ما كانت تطلب تفسيراً لكل ذلك من أبيها وإمامها.. فكان ينصحها بالتقية قائلا: «التقية دينى ودين آبائى» ألاَّ يجهر المرء بما ينتقد اتقاء الأذى حتى تتحسن الأحوال.. وكان ينصحها أن تنصرف إلى العبادة، حتى أصبحت من العابدات القانتات المجاهدات، حتى يؤثر عنها أنها كانت تقول مخاطبة الله عز وجل: «وعزتك وجلالك لئن أدخلتنى النار لأخُذَنَّ من توحيدى بيدى فأطوف به على أهل النار وأقول وحَّدْتُه فَعَذَّبَنى!!».

وظلت على هذا الحال بجوار والدها الذى كان يؤدى دوره فى تنوير العقل، إلى أن جاءت إلى مصر فى عام ١٤٥هـ لتعيش آمنة مطمئنة، ولكن القدر لم يمهلها، فقد توفيت فى العام نفسه، كما هو ثابت على ضريحها من نص العبارة: «هذا قبر السيدة الشريفة عائشة، من أولاد الإمام جعفر الصادق.. توفيت سنة خمس وأربعين ومائة هجرية».. وهو الضريح الموجود فى مسجدها الكائن فى أول الطريق إلى المقطم بجوار القلعة، فنادى على رؤوس الأشهاد بقوله: « إن المشهد القائم جنوب القاهرة باسم السيدة عائشة هو الذى يضم جسمانها الطاهر».

على أن السيدة عائشة رضى الله عنها تعلمت الكثير من والدها الإمام الفقيه جعفر الصادق، سوآء ما كانت تسمعه منه رضى الله عنه مباشرة، أو ما كانت تسمعه مع من يسمع فى مجالسه، ولقاءاته بأتباعه ومريديه قبل أن تتوجه إلى القاهرة وتعيش فيها حتى يدركها الموت. مثلا كانت تدرك منه ذلك التسامح الذى

يرفض الخصومة فى الدين، والتعصب المكروه بكل صوره، والاعتماد على الأدلة العلمية فى الحكم والاستقراء والاستنباط، وليس على المسلمات أو السماعيات.

كذلك كانت تستمع إليه حيث يُعلى من شأن حكم العقل فى القضايا التى لايوجد لها حكم فى الكتاب أو السنة، حيث كان يقرر فى هذا الصدد أنه إذا كان هدف الشريعة تحقيق المصلحة للبشر، وأن العقل قادر على التمييز بين الخير والشر، بين المصلحة العامة أو ما يقابلها، فإن العقل يهدى إلى ما فيه خير البشر، فيأخذونه، أو عَمَّا فيه ضررهم فيتركونه.

وسمعت منه أيضاً أن الاعتماد على العقل وأحكامه هو الطريق الصحيح إلى الله عز وجل. لقد أمر الله بالعدل والإحسان، ونهى عن المنكر والفحشاء. والعقل وحده هو الذى يحدد للإنسان كيف يتبع العدل والإحسان، وكيف يقاوم المنكر والفحشاء. وكيف ينفذ ما أمرنا الله به من التكاليف الشرعية.

بل كان رضى الله عنه يتجاوز ذلك فى أحاديثه إلى القول بحرية الإرادة الإنسانية، وإلى الدفاع عن حرية الرأى والاعتقاد، التى هى أساس قدرة الإنسان على تنفيذ أمر الله بالمعروف، ونهيه عن المنكر وإن حرية الإنسان هى أساس مسئوليته أمام الله سبحانه وتعالى، فالله عز وجل يحاسب المرء على ما يفعله، لاعلى ما قضى وقدَّر، فيحاسبه عن ذنبه، ولكن لا يحاسبه عن مرضه، فالمرض الله هو وحده الذى يقدره للإنسان.

هذه القيم والمبادىء.. كانت تسمعها السيدة عائشة من والدها إما مباشرة أو حين يتحدث بها فى مجالسه. ولم يكن عجيباً بعد ذلك أن تتسلح بها حتى أصبحت جزءاً منها. وكثيراً ما كانت أحاديثها فى مجالسها بعد أن وفدت مصر تتضمن ذلك. حتى أصبحت ملتقى الذين يريدون أن ينهلوا من تعاليم الإسلام فى صورته النقية الخالية من كل الشوائب.

* * *